الأجنحة المتكسرة

تأليف

جبران خليل جبران

تطلب من

مكتبة الهلال

بالفجالة - مصر

المطبعة التجارية الحديثة

الى التى تحدق بالشمس بأجفان جامدة وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة . وتسمع نغمة الروح (الكلى) من وراء ضجيج العميان وصراخهم . إلى M. E. H. أرفع هذا الكتاب ؟

٥ ع

جبران

١
توطئة

كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عينيّ بأشعته السحرية، ولمس نفسي لاول مرة بأصابعه النارية. وكانت سلمى كرامه المرأة الاولى التي أيقظت روحي بمحاسنها، ومشت أمامي الى جنة العواطف العلوية حيث تمر الايام كالاحلام وتنقضي الليالي كالاعراس

سلمى كرامه هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها، وأرتني خفايا الحب بانعطافها، وهي التي أنشدت على مسمعي أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية

أي فتى لايذكر الصبية الاولى التي أبدلت غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتاكة بحلاوتها؟ من منا لايذوب حنيناً الى تلك الساعة الغريبة التي اذا انتبه فيها فجأةً رأى كليته قد انقلبت وتحولت،

وأعماقه قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيذة بكل مافيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق والسهاد

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة فى ربيع حياته ، وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالانس ، وسكينة لياليه بالانغام

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار عند ماسمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان نفسى ، وكانت حياتى خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم فى الفردوس عند ما رأيت سلمى منتصبة أمامى كعمود النور ، فسلمى كرامه هى حواء هذا القلب المملوء بالاسرار والعجائب وهي التي أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الاشباح . حواء الاولى أخرجت آدم من الفردوس بارادتها وانقياده ، أما سلمى كرامه فأدخلتنى الى جنة الحب والطهر بحلاوتها واستعدادى ، ولكن ما أصاب الانسان الاول قد أصابنى ، والسيف النارى الذى طرده من الفردوس. هو كالسيف الذى أخافني بلمعان حده ، وأبعدنى كرها عن

جنة المحبة قبل أن أخالف وصية ، وقبل أن أذوق طعم ثمار الخير والشر

واليوم ، وقد مرت الاعوام المظلمة طامسة بأقدامها رسوم تلك الايام ، لم يبق لى من ذلك الحلم الجميل سوى تذكارات موجعة ترفرف كالاجنحة غير المنظورة حول رأسى ، مثيرة تنهدات الاسى في أعماق صدرى ، مستقطرة دموع اليأس والاسف من أجفانى . . وسلمى — سلمى الجميلة العذبة قد ذهبت الى ماوراء الشفق الازرق ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة فى قلبي ، وقبر رخامى منتصب فى ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامه . غير ان السكينة التي تخفر القبور لاتفشى ذلك السر المصون الذى أخفته الآلهة فى ظلمات التابوت ، والاغصان التي امتصت عناصر الجسد لاتبيح بحفيفها مكنونات الحفرة ، أما غصات وأوجاع هذا القلب فهى التى تتكلم وهى التي تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور اشباح تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت ، اذا مررتم بتلك المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين ، وسيروا ببطء كيلا تزعج أقدامكم رفات الراقدين تحت اطباق الثرى . وقفوا متهيبين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم جثمانها . ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم : ههنا دفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ماوراء البحار ، وههنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه واضمحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة ندبات الحزن والاسى ، نائحة مع الغصون على صبية كانت بالامس نغمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سراً صامتا في صدر الارض

أستحلفكم يارفاق الصبا بالنساء اللواتي أحببتهن قلوبكم أن تضعوا أكاليل الازهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي — فرب زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى التي تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة

٢

الكآبة الخرساء

أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه متأسفين على انقضائه، أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتوق جدران سجنه وثقل قيوده. أنتم تدعون تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة، سائرة نحو البساتين المزهرة، أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه، وتتكاثر نامية بنموه ولم تجد منفذاً تنصرف منه الى عالم المعرفة حتى دخل اليه الحب وفتح أبوابه وأنار زواياه، فالحب قد عتق لساني فتكلمت ومزق

أجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وسمعت همس طهركم، وأنا أيضا أذكر تلك البقية الجميلة من شمال لبنان، فما أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا ورأيت تلك الأودية المملوءة سحراً وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا وسمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون. ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن وأشوق اليها شوق الرضيع الى ذراعي أمه هي هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البزاة تسبح حرة في الخلاء الوسيع — وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير، وتنسج بأصابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي — فلم أذهب إلى البرية إلا وعدت منها كئيباً جاهلا أسباب الكآبة. ولا نظرت مساءً إلى الغيوم

المتلونة بأشعة الشمس إلا وشعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض . ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير إلا ووقفت حزيناً لجهلي موحيات الحزن

يقولون أن الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة — وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة أقسى من الهاوية وأمرّ من الموت . والصبي الحساس الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلا هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشمس لان نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين قوة خفية تحلق به السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالارض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة

للكآبة أيادٍ حريرية الملامس قوية الاعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة . فالوحدة حليفة الكآبة كما انها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل

الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم ، وتنفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور خيالات المساء ، فان لم يكن للصبي من الملاهي مايشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الاميال كانت الحياة أمامه كحبس ضيق لايرى في جوانبه غير أنوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات

أما تلك الكآبة التي اتبعت أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملاهي لانها كانت متوفرة لدى ، ولا عن افتقارى إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هى من أعراض علة طبيعية فى النفس كانت تحبب الى الوحدة والانفراد ، وتميت فى روحى الأميال الى الملاهى والألعاب ، وتخلع عن كتفىّ أجنحة الصبا وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوءه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الاغصان ولكنه لايجد ممراً يسير فيه جدولا مترنماً إلى البحر

هكذا كانت حياتى قبل أن أبلغ الثامنة عشرة ، فتلك

السنة هي من ماضيّ بمقام القمة من الجبل ، لأنها أوقفتني متأملا تجاه هذا العالم ، وأرتني سبل البشر ومروج أميالهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم

في تلك السنة ولدت ثانية والمرء إن لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إلى من وراء أجفان امرأة جميلة وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم ، ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظل قلبه بعيدا عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف

٣

يد القضاء

كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب. وكان نيسان قد أنبت الازهار والاعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأنها أسرار تعلنها الارض للسماء. وكانت أشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة، فبانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال

الربيع جميل في كل مكان ولكنه أكثر من جميل في سوريا ... الربيع روح اله غير معروف تتطوف في الارض مسرعة، وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الوراء، مستأنسة بأرواح الملوك والانبياء الحائمة في الفضاء. مترنمة مع جداول اليهودية بأناشيد سليمان الخالدة. مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم

ويبروت فى الربيع أجمل منها في ما بقى من الفصول لانها تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار الاول وحرارة الثانى كصبية حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفته تجفف جسدها باشعة الشمس

ففى يوم من تلك الايام المفعمة بانفاس نيسان المسكرة وابتساماته المحيية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً عن ضجة الاجتماع . وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل فى الخامسة والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملامحه المتجعدة على الهيبة والوقار ، فوقفت احتراماً وقبيل أن أصافحه مسلماً تقدم صديقى وقال « حضرته فارس افندى كرامه » ثم لفظ اسمى مشفوعاً بكلمة ثناء ، فاحدق بى الشيخ هنيهة لامساً باطراف أصابعه جبهته العالية المكللة بشعر ابيض كالثلج كانه يريد أن يسترجع الى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ، ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب منى قائلا « انت ابن صديق حبيب قديم صرفت ربيع العمر برفقته فما أعظم

فرحي بمرآك ، وكم أنا مشتاق الى لقاء أبيك بشخصك »

فتأثرتُ لكلامه وشعرت بجاذبٍ خفيٍّ يدنيني اليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور الى وكره قبيل مجيء العاصفة . ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا أخبار أعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره .. ان الشيوخ يرجعون بالفكر الى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق الى مسقط رأسه ويميل الى سرد حكايات الصباميل الشاعر الى تنغيم أبلغ قصائده . فهم يعيشون بالروح في زوايا الماضي الغابر لان الحاضر يمرّ بهم ولا يلتفت والمستقبل يبدو لاعينهم متشحاً بضباب الزوال وظلمة القبر

وبعد ساعة مرت بين الاحاديث والتذكارات مرور ظل الاغصان على الاعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ولما دنوت منه مودعاً أخذيدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلا « أنا لم أر والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو أن استعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة »

فانحنيت شاكراً واعداً بتتميم مايجب على الابن نحو

صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدتُ صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحذر « لاأعرف رجلا سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلا والفضيلة مثرياً . وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل أن يلامسوا بالاذى نفس مخلوق — ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين لانهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم . . ولفارس كرامة ابنة وحيدة تسكن معه منزلا فخما في ضاحية المدينة وهي تشابهه بالاخلاق وليس بين النساء من يماثلها رقة وجمالا — وهي أيضاً ستكون تاعسة لان ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة »

لفظ صديقي الكلمات الاخيرة وظهرت على محياه لوائح الغم والاسف ثم زاد قائلا (فارس كرامة شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالاعمي وتوقفه مطامعهم كالاخرس . أما ابنته فتخضع ممتثلة

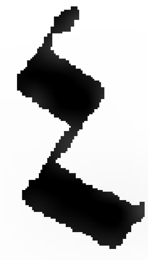
لارادته الواهنة على رغم كل مافى روحها الـكبيرة من القوى والمواهب ، وهـذا هو السر الـكريه الـكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم هـذا السر رجل يأتلف فى شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء . وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظـل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل . هو رئيس دين فى بلاد الاديان والمذاهب تخافه الارواح والاجساد وتخر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب الانعام أمام الجزار . ولهـذا المطران ابن أخ تتصارع فى نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تنقلب العقارب والافاعى على جوانب الـكهوف والمستنقعات . وليس بعيداً اليوم الذي ينتصب فيه المطران بملابسه الحبرية جاعلا ابن أخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله ، رافعاً بيده الاثيمة اكليل الزواج فوق رأسيهما ، مقيداً بسلاسل التـكهين والتعزيم جسداً طاهرا بجيفة منتنة ، جامعاً فى قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية ، واضعاً فى صدر الليل . . هـذا كل ماأستطيع أن أقوله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني أكثر من ذلك لان ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب

الموت الخوف من الموت »

وحول صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه يبحث عن أسرار الايام والليالى بين دقائق الاثير

فقمت إذ ذاك من مكاني ولما أخذت يده مودعا قلت له « غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدى له واحتراما للتذكارات التي أبقتها صداقته لوالدى »

فبهت بى الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتى القليلة البسيطة قد أوحت اليه فكراً جديداً هائلا ، ثم نظر فى عيني نظرة طويلة غريبة — نظرة محبة وشفقة وخوف — نظرة نبي يرى فى أعماق الارواح مالا تعرفه الارواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلا ولكنه لم يقل شيئاً . فتركته وسرت نحو الباب بافكار متضعضعة ، وقبيل أن التفت إلى الوراء رأيت عينيه مازالتا تتبعاني بتلك النظرة الغريبة — تلك النظرة التى لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسى من عالم المقاييس والكمية وطارت إلى مسارح الملأ الاعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم



في باب الهيكل

وبعد أيام وقد مللتُ الوحدة ، وتعبت أجفاني من النظر إلى أوجه الكتب العابسة علوتُ مركبة طالباً منزل فارس كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب القوم للتنزه ، حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية فسارا خبباً على ممر تظلله أشجار الصفصاف وتمايل على جانبيه الاعشاب والدوالي المتعرشة وازاهر نيسان المبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به حديقة متّرامية الاطراف تتعانق في جوانبها الاغصان وتعطر فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين

ماسرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس كرامه في باب المنزل خارجا للقائي كأن هدير المركبة في تلك البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي — فهشّ متأهلا

وقادني مترحباً إلى داخل الدار ونظير والد مشتاق اجاسني بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضيَ مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي . فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الاحلام والاماني التي يترنم بها الفتيان قبل ان تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطىء العمل حيث الجهاد والنزاع . . للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر واعصاب من الاوهام ترتفع بالفتيان إلى ماوراء الغيوم فيرون الكيان منموراً بأشعة متلونة بألوان قوس القزح ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الاجنحة الشعرية لاتلبث ان تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون الى عالم الحقيقة — وعالم الحقيقة مرآة غريبة يري فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة . .

في تلك الدقيقة ظهرت من ستائر الباب المخملية صبية ترتدي ثوباً من الحرير الابيض الناعم ومشت نحوي ببطء ، فوقفت ووقف الشيخ قائلا « هذه ابنتي سلمى » وبعد ان لفظ اسمي شفعه بقوله « ان ذاك الصديق القديم الذي حجبته عني الايام قد عادت وأبانته لي بشخص ابنه فأنا أراه الآن ولا أراه » فتقدمت الصبية الي وأحدقت

بعينيه هنيهة كأنها تريد أن تستنطقهما عن حقيقة أمرى ، وتعلم منهما أسباب مجيئى الى ذلك المكان ، ثم أخذت يدى بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الاكف بعاطفة غريبة جديدة أشبه شيء بالفكر الشعرى عند ابتداء تكوينه فى مخيلة الكاتب

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها الى تلك الغرفة روحاً علوية توعز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوى وقالت مبتسمة « كثيراً ما حدثنى والدى عن أبيك معيداً على مسمعى حكايات شبابهما » فان كان والدك قد اسمعك بتلك الوقائع لا يكون هذا اللقاء هو الاول بيننا »

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال « إن سلمى روحية الاميال والمذاهب فهى ترى جميع الاشياء سابحة فى عالم النفس »

وهكذا عاد فارس كرامه إلى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كانه وجد في سراً سحرياً يرجعه على أجنحة الذكرى إلى ربيع أيامه الغابرة

كان ذلك الشيخ يحدق بي مسترجعاً أشباح شبابه وأنا أتأمله حالماً بمستقبلي . كان ينظر إلى مثلما تخيم أغصان الشجرة العالية المملوءة بآتى الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء . شجرة مسنة راسخة الاعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت أمام عواصف الدهر وانوائه . وغرسة ضعيفة لينة لم تر غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر

أما سلمى فكانت ساكتة تنظر إلى تارة وطورا الى أبيها كأنها تقرأ في وجهينا أول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها

قضى ذلك النهار متنهداً أنفاسه بين تلك الحدائق والبساتين ، وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل ، وفارس كرامه يتلو على أخباره فيذهلني وانا اترنم أمامه باغانى شبيبتى فاطربه ، وسلمى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر الينا بعينيها الحزينتين ولا تتحرك ، وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان للجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطيع التى تحدثها الشفاه والالسنة .

لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر، وتجعلها شعورا صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي الى اعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته، أما أفكارنا فتقف أمامه محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالالفاظ ولكنها لا تستطيع — هو سيال خاف عن العين تتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطرا — هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الاميال . ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً . فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم ان أراها أجمل امرأة أمام الشمس، أم هي سكرة الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً وأشباحاً لاحقيقة لها ؟ هل أعمتني الفتوة فتوهمت الاشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقة في قدها، أم هي تلك الاشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحب وأحزانه ؟ لاأدري ولكني أعلم بأني

شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة . عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرفة الروح على وجه الغمر قبل أن تبتدئ الدهور ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتي وتعاستي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بارادة ذلك الروح

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى للمرة الاولى وهكذا شاءت السماء وعتقتني على حين غفلة من عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حراً في موكب المحبة ، فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لانها ترفع النفس الى مقام سام لاتبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ، ولا تسود عليه نواميس الطبيعة وأحكامها

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال بصوت تعانقهُ رنة الاخلاص « الآن وقد عرفت الطريق الى هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك الى بيت أبيك وأن تحتسبني وسلمى كوالد وأخت لك — أليس كذلك ياسلمى ؟ »

فأحنتْ سلمى رأسها ايجاباً ثم نظرت اليّ نظرة

غريب ضائع وجد رفيقاً يعرفهُ

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النغمة الاولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة. هي استهلال الاغنية السماوية التي انتهت بالندب والرثاء — هي القوة التي شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار. هي الاناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلقم

وخرجت فشيعني الشيخ الى أطراف الحديقة فودعتهما وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بملامسة حافة الكأس



٥

الشعلة البيضاء

وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه وألتقي بسلمى واجلس قبالها في تلك الحديقة متأملا محاسنها ، معجباً بمواهبها ، مصغياً لسكينة كآبتها شاعراً بوجود أياد خفية تجتذبني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنى جديداً من معاني جمالها وسرّاً علوياً من أسرار روحها ، حتى أصبحت أمام عينيّ كتاباً أقرأ سطوره واستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا أستطيع الوصول الى نهايته

ان المرأة التي تمنحها الالهة جمال النفس مشفوعا بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر ، وعند ما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس . وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد فكيف أصفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن يستحضر تغريدة البلبل وهمس الوردة

وتنهدة الغدير ؟ أيقدر الاسير المثقل بالقيود أن يلاحق هبوب نسمات الفجر؟ ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعنى التهيب عن اظهار خيال من خيالات سلمى بالالفاظ الواهية اذا كنت لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ ان الجائع السائر فى الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس اذا كانت السماء لا تمطره المن والسلوى

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كاشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازنة أشبه شىء بمقاطيع الالحان الاصفهانية . وصوتها منخفضاً حلواً تقطعه التنهدات فينسكب من بين شفتيها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء . ووجهها — ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوبا بنقاب من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن فى كل دقيقة سراً من أسرار النفس الكبيرة المتألمة في داخل الجسد، وتذكر الناظرين اليها بعالم روحي بعيد عن

هـذا العالم؟ ان الجمال فى وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التى وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم أو كالرؤيا أو كفكر علوى لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن فى شعرها الذهبى بل فى هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن فى عينيها الكبيرتين بل فى النور المنبعث منهما . ولا فى شفتيها الورديتين بل فى الحلاوة السائلة عليهما . ولا فى عنقها العاجي بل فى كيفية انحنائه قليلاً الى الامام . جمال سلمى لم يكن فى كمال جسدها بل فى نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الارض واللانهاية . جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعرى الذى نشاهد أشباحه فى القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة ، وأصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت أرواحهم تظل مكتنفة بغلاف من الدموع

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الاحلام البعيدة ، ويجعله أن يصغى لنبضات قلبه ويرى خيالات أفكاره وعواطفه منتصبة أمام عينيه

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها فهي الكآبة العميقة الجارحة ، فالكآبة كانت وشاحاً معنويا ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبة وغرابة ، وتظهر أشعة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح

وقد أوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة فكان كلانا يرى في وجه الثاني مايشعر به قلبه ، ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكأن الالهة قد جعلت كل واحد منا نصفا للآخر يلتصق به بالطهر فيصير انسانا كاملا ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه

ان النفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها الى نفس أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنيهما — فالقلوب التي تدنيها اوجاع الكآبة بعضها من بعض لاتفرقها بهجة الافراح وبهرجتها ، فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهرا وجميلا وخالدا

٦

العاصفة

وبعد أيام دعاني فارس كرامه الى مناولة العشاء فى منزله ، فذهبت ونفسى جائعة الى ذلك الخبز العلوى الذى وضعته السماء بين يدى سلمى . — ذلك الخبز الروحي الذى نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعا — ذلك الخبز السحرى الذى ذاق طعمه قيس العربي ودانتى الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت أحشاؤهم وذابت قلوبهم — ذلك الخبز الذى عجنته الآلهة بحلاوة القبل ومرارة الدموع واعدته مأكلا للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي فى زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها الى عمد شجرة ، فبانت بثوبها الابيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان . فدنوت منها صامتا وجلست بقربها جلوس مجوسى متهيب أمام النار المقدسة . ولما حاولت

الـكلام وجدت لسانى منعقدا وشفتي جامدتين فاستأنست بالسكوت لان الشعور العميق غير المتناهى يفقد شيئا من خاصته المعنوية عند مايتجسم بالالفاظ المحدودة . ولـكنني شعرت بان سـلمى كانت تسمع فى السكينة مناجاة قلبي المتواصلة ، وتشاهد فى عينى أشباح نفسى المرتعشة

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه الى الحـديقة ومشى نحونا مرحبا بى كعادته باسـطا يده الي كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السر الخفى الذى يربط روحي بروح ابنته ثم قال مبتسما (هلما ياولدىَ الى العشـاء فالطعام ينتظرنا) فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر الىّ من وراء أجفان مكحولة بالرقة والانعطاف كأن لفظة « ياولدىّ » قد أيقظت فى داخلها شعورا جديدا عذبا يكتنف محبتها لى مثلما تحتضن الام طفلها

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث — جلسنا في تلك الغرفة نتلذذ بألوان الطعام الشهية وأنواع الخمور المعتقة ، وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم ، وتحلم بما تى المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه

وأهواله . ثلاثة أشخاص تختلف أفكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة . ثلاثة من الضعفاء الابرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلا وهذه هي المأساة المستتبة على مرسح النفس . شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها — وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحدق به لترى مايخبيء لها من الغبطة والشقاء — وفتى كثير الاحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لايستطيع النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينة الدجى وتحدق به عيون السماء . ثلاثه يأكلون ويشربون وفي اعماق صحونهم وكؤوسهم قد أخفى القدر المرارة والاشواك

ولم ننته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادمات وخاطبت فارس كرامه قائلة « في الباب رجل يطلب مقابلتك ياسيدى »

فسألها بسرعة « من هو هذا الرجل » فأجابت « أظنه خادم المطران ياسيدى » . فسكت دقيقة وأحدق بعيني ابنته نظير نبي ينظر إلى وجه السماء ليرى ماتخبئه من الاسرار . ثم التفت نحو الخادمة وقال « دعيه يدخل »

فعادت الخادمة وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معكوف الطرفين فسلم منحنياً وخاطب فارس كرامه قائلا « قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك أن تتكرم بالذهاب اليه فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات اهمية »

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة « أرجو أن أعود والقاك ههنا ، فسلمى ستجد بك مؤنساً يبعد باحاديثه وحشة الليل، ويزيل بانغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد » ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسما « أليس كذلك ياسلمى ؟ »

فأحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلا وبصوت يضارع نغمة الناى رقة قالت « سوف اجهد

النفس لكي اجعل ضيفنا مسروراً ياوالدى »

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران ، وظلت سلمى واقفة تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها وراء ستائر الظلام ، واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة وتشرب السكون حرتقة سنابك الخيل ثم جلست قبالتي على مقعد موشى بنسيج من الحرير الاخضر فبانت بأثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسمات الصباح على بساط من الاعشاب

كذا شاءت السماء فخلوت بسلمي ليلا في منزل منفرد تخفره الاشجار وتغمره السكينة وتسير في جوانبه خيالات الحب والطهر والجمال

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفتكر يترقب الآخر ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذى يحدث التفاهم بين الارواح المتحابة ؟ هل هي الاصوات والمقاطيع الخارجة من الشفاه والالسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا يوجد شيء اسمي مما تلده الافواه وأطهر مما تهتز به أوتار الحناجر أليست هى السكينة التى تحمل

شعاع النفس إلى النفس وتنقل همس القلب إلى القلب ؟ أليست هي السكينة التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود مقتربين من الملأ الاعلى شاعرين بأن أجسادنا لاتفوق السجون الضيقة وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟

ونظرت سلمى اليّ وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوء سحري « تعال نخرج الى الحديقة ونجلس بين الاشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل »

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً « أليس الافضل ان نبقى ههنا ياسلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام يحجب الاشجار والازهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً » فاجابت « إذا حجب الظلام الاشجار والرياحين عن العين فالظلام لايحجب الحب عن النفس »

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ثم حولت عينيها ونظرت نحو النافذة فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً لكل مقطع معنى راسماً لكل معنى حقيقة . ثم عادت وأحدقت بي كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع

كلماتها من أذنى بسحر أجفانها . ولـكن سحر تلك الاجفان لم يسترجع تلك الالفاظ الا ليعيدها الى أعماق صدرى أكثر وضوحاً وأشد تأثيرا وليبقيها هناك ملتصقة بقلبي متموجة مع عواطفى الى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل فى هذا العالم يتولد من فكر واحد أو من حاسة واحدة فى داخل الانسان . كل ما نراه اليوم من أعمال الاجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً فى عاقلة رجل أو عاطفة لطيفة فى صدر امرأة .. الثورات الهائلة التى أجرت الدماء كالسواقى وجعلت الحرية تعبد كالآلهة كانت فكراً خيالياً مرتعشا بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين ألوف من الرجال . الحروب الموجعة التى ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل فى رأس رجل واحد . التعاليم السامية التى غيرت مسير الحياة البشرية كانت ميلا شعرياً فى نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه . فكر واحد أقام الاهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة وخاطر واحد أوجد مجد الاسلام وكلمة واحدة أحرقت مكتبة الاسكندرية

فكر واحد يجيئك فى سكينة الليل ويسير بك الى المجد أو الى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة تجعلك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين شفتى رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى .. كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه فى تلك الليلة الهادئة أوقفتنى بين ماضيّ ومستقبلى وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة والخلو وسارت بأيامى على طريق جديدة الى مسارح الحب حيث الحياة والموت

خرجنا الى الحديقة وسرنا بين الاشجار شاعرين بأصابع النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الازهار والاعشاب اللدنة تمايل بين أقدامنا ، حتى اذا مابلغنا شجرة الياسمين جلسنا صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة النائمة ونكشف بحلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء الناظرة الينا من وراء ازرقاء السماء

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك الروابى والشواطىء فظهرت القرى على أكتاف الاودية

كأنها قد انبثقت من اللاشيء . وبان لبنان جميعه من تحت تلك الاشعة الفضـية كأنه في متكيء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفى أعضاءه ولا يخفيها

لبنان عند شـعراء الغرب مكان خيالى قد اضمحلت حقيقته بذهاب داود وسليمان والانبياء مثلما انحجبت جنة عدن بسقوط آدم وحواء . هو لفظة شعرية لا اسم لجبل — لفظة ترمز عن عاطفة فى النفس وتستحضر الى الفكر رسوم غابات من الارز يفوح منها العطر والبخور ، وابراج من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول والاودية . وانا قد رأيت لبنان فى تلك الليلة مثل فكر شعرى خيالى منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة

كذا تتغير الاشـياء أمام أعيننا بتغيير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الاشياء متشحة بالسحر والجمال عند مالا يكون السحر والجمال الا فى نفوسنا

والتفتت الىّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها ومعصميها فبانت كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد

لعشتروت ربة الحسن والمحبة « لماذا لاتتكلم — لماذا لاتحدثني عن ماضي حياتك ؟ »

فنظرت الى عينيها المنيرتين ومثل أخرس فاجأ النطق شفتيه أجبتها قائلاً « ألم تسمعيني متكلماً مذ جئت الى هذا المكان — أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا الى هذه الحديقة ؟ ان نفسك التي تسمع همس الازهار وأغاني السكينة تستطيع أن تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي »

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع « قد سمعتك . . نعم سمعتك . . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من أحشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار »

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير وجودها « وأنا قد سمعتك ياسلمى — سمعت نغمة عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس الارض »

فاغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائلة « قد عرفت الآن بانه يوجد شيء أعلى من السماء ، وأعمق من البحر وأقوى من

الحياة والموت والزمن . قد عرفت الآن مالم أكن أعرفه بالامس ولا أحلم به »

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه أعز من صديق وأقرب من الاخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلا يجاور نفسي

ما أجهل الناس الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وان لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا بجيل كامل

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الافق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ثم قالت « لقد كنت لي بالامس مثل أخ اقترب منه مطمئنة واجلس بجانبه في ظلال والدي . أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الاخوية . قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية عميقة مخيفة لذيذة تملأ قلبي حزناً وفرحاً »

فأجبتها « أليست هذه العاطفة التى نخافها ونرتجف لمرورها فى صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذى يسير القمر حول الارض والارض حول الشمس والشمس وما يحيط بها حول الله ؟ »

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعرى وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع فى عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ثم قالت « من من البشر يصدق حكايتنا — من منهم يصدق باننا فى الساعة التى تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قدقطعنا العقبات واجتزنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين . من منهم يعتقد بان نيسان الذى جمعنا لاول مرة هو الشهر الذى أوقفنا فى قدس أقداس الحياة ؟ »

قالت هذه الكلمات ويدها مابرحت على رأسي المنحني ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعرى ـ ثم اجبتها قائلا « ان البشر لايصدقون حكايتنا لانهم لايعلمون بان المحبة هى الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة

الفصول . ولكن هل هو نيسان الذى جمعنا لاول مرة وهل هى هذه الساعة التى أوقفتنا فى قدس اقداس الحياة ؟ أم لا جمعت روحينا قبضة الله قبل أن تصيرنا الولادة أسيرى الايام والليالى ؟ ان حياة الانسان ياسلمى لا تبتدىء فى الرحم كما انها لاتنتهى امام القبر ، وهذا الفضاء الوسيع المملوء بأشعة القمر والكواكب لايخلو من الارواح المتعانقة بالمحبة والنفوس المتضامة بالتفاهم »

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسى تاركة بين مغارس الشعر تموجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدها نمواً وحراكا . فأخذت تلك اليد براحتى نظير متعبد يتبرك بلثم المذبح ووضعتها على شفتى الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بحرارتها كل مافي القلب البشرى من الاحساس ، وتنبه بعذوبتها كل مافى النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة تساورنا سكينة الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الاشجار والرياحين . حتى اذا مابلغنا تلك الحالة التي ينسى

خبها الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر جواد مركبة تقترب منا مسرعة فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيره بين الحيرة والشقاء فعرفنا بأن الوالد الشيخ قد عاد من دار المطران فنهضنا وسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله

وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها واحدق بوجهها طويلا كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضئيلتين . ثم انسكبت دموعه على وجنتيه المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق « عما قريب ياسلمى عما قريب تخرجين من بين ذراعي والدك الى ذراعي رجل آخر . عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المفرد إلى ساحة العالم الوسيعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك ويصير والدك غريباً عنك ، لقد لفظ القدر كلمته ياسلمى فلتباركك السماء وتحرسك »

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت

عيناها كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها . ثم شهقت وتململت متوجعة كعصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض، مرتجفا بآلامه — وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة (ماذا تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى اين تريد أن تبعث بي. ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن مخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة « قد فهمت الآن . . قد عرفت كل شيء ... إن المطران قد فرغ من حبك قضبان القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين فهل هذه هي ارادتك ياوالدي ؟ »

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ثم أدخلها الدار وأشعة الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة . فبقيت انا واقفاً بين الاشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلما تتلاعب العواصف باوراق الخريف . ثم اتبعتهما الى القاعة — وكيلا أظهر بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعا ونظرت إلى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة الفلك . ثم خرجت دون ان يشعرا بخروجي

ولـكنني مابلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ مناديًا فالتفت وإذا به يتبعني فعدت إلى لقائه ولما دنوت منه أمسك بيدى وقال بصوت مرتعش « سامحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك مكتنفاً بالدموع — ولـكنك سوف تجيء الى دائما — أليس كذلك ؟ ألا تزورنى عند مايصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة المحزنة ؟ إن الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما أن الصباح لا يلتقي بالمساء — أما أنت فسوف تجيء إلىّ لتذكرنى بايام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتعيد على مسمعى أخبار الحياة التى لم تعد تحسبني من ابنائها .. أليس كذلك ؟ ألا تزورنى عند ماتذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟ »

لفظ الـكلمات الاخيرة بصوت منخفض منقطع ولما أخذت يده وهززتها صامتا أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدى من أجفانه ، فارتعشت نفسى فى داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث إلى شفتيّ ثم تعود كالغصات

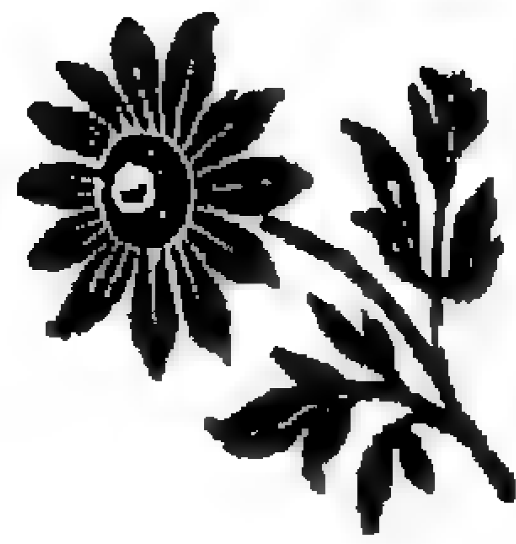
إلى أعماق قلبي — ولما رفعت رأسي ورأى أن دموعه قد استدرت الدموع من أجفاني انحنى قليلا ولمس بشفتيه المرتجفتين أعالى جبهتي ثم قال محولا وجهه نحو باب المنزل « مساء الخير ... مساء الخير يا ابني »

إن دمعة واحدة تلمع على وجنة شيخ متجعدة لهي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان

إن دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة . أما دموع الشيوخ فهى فضلات العمر تنسكب من الاحداق . هي بقية الحياة في الاجساد الواهنة ، الدموع في أجفان الشبيبة كقطرات الندى على أوراق الوردة أما الدموع على وجنة الشيخوخة فاشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الارياح وتذريها عند ما يقترب شتاء الحياة.

واختفى فارس كرامه وراء مصارع الباب وخرجت أنا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في أذني وجمالها يسير كالخيال أمام عيني ودموع والدها تجف ببطء على يدي.

خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ولكن
حواء هذا القلب لم تكن بجانبي لتجعل العالم كله فردوساً ..
خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي
الليلة التي لمحت فيها وجه الموت لاول مرة
كذا تحيي الشمس الحقول بحرارتها وبحرارتها تميتها



٧

بحيرة النار

كل ما يفعله الانسان سراً في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً ، الاعمال التي نحاول اليوم اخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشوارع

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الاثير أقواله وأحاديثه إلى أحياء المدينة حتى بلغت مسمعي

ماطلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة المقمرة ليفاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين أو يخابره بامور الارامل والايتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب

كان فارس كرامه رجلا غنياً ولم يكن له وريث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه لا لجمال وجهها ونبالة روحها بل لانها غنية موسرة تكفل باموالها الطائلة مستقبل منصور بك ، وتساعده باملاكها الوسيعة على ايجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف

إن رؤساء الدين فى الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه نفوسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما فى وسعهم ليجعلوا انسباءهم فى مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله ، إن مجد الامير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى الى الاخوة وأبناء الاخوة فى حياته ، وهكذا يصبح الاسقف المسيحى والامام المسلم والكاهن البرهمي كافاعي البحر التى تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بافواه عديدة

عند ما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة ، وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة

إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ، أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصات عند ما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة . ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهم بزواج الابن لان هذا يكسب العائلة عضوا جديدا أما ذاك فيسلبها عضوا قديماً عزيزا

أجاب الشيخ طلب المطران مضطرا وانحنى أمام مشيئته قهرا عما فى داخل نفسه من الممانعة وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه فعرف خشونته وطمعه وانحطاط أخلاقه ، ولكن أى مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفا فى سوريا ويبقى محسوبا بين المؤمنين ؟ أى رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه فى الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أتعاند العين سهما ولا تفقر أو تناضل اليد سيفا ولا تقطع ؟ وهب أن ذلك الشيخ كان قادرا على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة إبنته فى مأمن من الظنون والتآويل ، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ الشفاه والالسنة ؟ أوليست جميع

العناقيد العالية حامضة فى شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القدر على سلمى وقادها عبدة ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات . وهكذا سقطت، تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لاول مرة على أجنحة الحب البيضاء فى فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة الازاهر

ان أموال الاباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين . تلك الخزائن الوسيعة التى يملأها نشاط الوالد وحرص الام تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الاله العظيم الذى يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفا يعذب النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هى كالكثيرات من بنات جنسها اللواتى يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمانى العريس . فلو لم يكن فارس كرامه رجلا غنيا لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس

مر أسبوع وحب سلمى يجالسنى في المساء منشدا على مسمعى أغانى السعادة ويانبهني عند الفجر ليرينى معانى

الحياة وأسرار الـكيان . حب علوى لا يعرف الحسد لانه غني ولا يوجع الجسد لانه فى داخل الروح . ميل قوى يغمر النفس بالقناعة ، مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتفاء . عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره ، فتون جعلنى أرى الارض نعيما والعمر حلما جميلا . فكنت أسير صباحا في الحقول وأرى فى يقظة الطبيعة رمز الخلود . واجلس على شاطىء البحر واسمع من أمواجه أغانى الابدية وامشي فى شوارع المدينة وأجد فى طلعات العابرين وحركات المشتغلين محاسن الحياة وبهجة العمران

تلك أيام مضت كالاشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق لى منها سوى الذكرى الاليمة — فالعين التى كنت أرى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحدق بغير غضب العواصف ويأس الشتاء . والاذن التى كنت اسمع بها اغنية الامواج لم تعد تصغى لغير أنة الاعماق وعويل الهاوية . والنفس التى كانت تقف متهيبة امام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقراء وتعاسة الساقطين . فما احلى ايام الحب وما اعذب احلامها ، وما

أمرّ ليالى الحزن وما أكثر مخاوفها

وفى نهاية الاسبوع وقد سكرت نفسى بخمرة عواطفى سرت مساء الى منزل سلمى كرامه — ذلك الهيكل الذى أقامه الجمال وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً — ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود قوة تستهوينى وتستملينى وتبعدنى عن هذا العالم وتدنيني ببطء الى عالم سحرى خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف جذبته السماء الى مسارح الرؤيا وجدتني سائراً بين تلك الاشجار المحتبكة والزهور المتعانقة ، حتى اذا ما اقتربت من باب الدار التفت واذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث جلسنا منذ اسبوع فى تلك الليلة التى اختارتها الالهة من بين الليالى وجعلتها بدء سعادتى وشقائى — فدنوت منها صامتاً فلم تحترك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومى قبل قدومى ، ولما جلست بجانبها أحدقت بعينيّ دقيقة وتنهدت تنهدة طويلة عميقة ثم عادت ونظرت الى الشفق البعيد حيث تعبث أوائل الليل بأواخر النهار ، وبعد هنيهة مملوءة

بتلك السكينة السحرية التي تضم نفوسنا الى مواكب الارواح غير المنظورة ، حولت سلمى وجهها نحوى وأخذت يدى بيد مرتعشة باردة ، وبصوت يشابه تأوّه جائع لايقوى على الكلام قالت « انظر الى وجهي ياصديقي ، انظر إلى وجهي جيداً وتأمله طويلا واقرأ فيه كل ما تريد أن تفهمه مني بالكلام . . . انظر إلى وجهي ياحبيبي . . انظر جيداً ياأخي . . »

فنظرت الى وجهها — نظرتُ طويلا فرأيت تلك الأجفان التي كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتحترك كأجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم . رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط . رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليهما الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردتين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن . رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحني إلى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في

تلافيف الرأس

وأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمي — رأيتها جميعها ولـكنها لم تـكن فى نظرى إلا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة . ان الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تـكسب الوجـه جمالا وملاحة مهما كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة . أما الوجوه التى لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تـكون جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء . أن الـكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر . فسلمى كرامه كانت فى عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس — كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التى لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن . ولا تترك ذراعى أمها الرؤوف إلا لتعيش فى عبودية والدة زوجها القاسية

وبقيت محدقاً بوجه سلمى مصغياً لانفاسها المتقطعة

صامتا مفكراً شاعراً متألماً معها ولها حتى أحسست أن الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين بأعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي ، ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول بهدوء « تعالَ نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل أن يحمل علينا بمخاوفه وأهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر — قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي بالرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية ، ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق مابقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريبا مهما جعلاه بعيداً فما اغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها . . . في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر ، وفي ظلال هذه الياسمينة قد عانق الحب روحي لأول مرة بينما كان القدر يخط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار

المطران بولس غالب . وفى هذه الساعة وقد جلس والدى وخطيبي ليضفرا اكليل زواجي أراك جالسا بجانبي وأشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامىء يحوم مرفرفا فوق ينبوع ماء يخفره ثعبان جائع مخيف ، فما اعظم هذه الليلة وما أعمق أسرارها »

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضا على عنق حبنا ليميته فى طفولته « سيظل هـذا الطائر حائمـا مرفرفا فوق الينبوع حتى يضنيه العطش فيرديه أو يقبض عليه الثعبان المخيف فيمزقه ويلتهمه »

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالاوتار الفضية » لا : لا ياصديقي فليبق هذا الطائر حياً . ليبق هذا البلبل مغرداً حتي المساء ، حتى ينتهى الربيع ، حتي ينتهى العـالم ، حتى تنتهى الدهور . لاتخرسه لان صوته يحييني ولا توقف جناحيه لان حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي »

فهمست متنهدا « الظمأ يقتله ياسلمى والخوف يميته »

فأجابت والـكلام يتدفق بسرعة من بين شفتيها المرتعشتين « أن ظمأ الروح أعذب من ارتواء المادة وخوف

النفس أحب من طمأنينة الجسد . ولكن اسمع ياحبيبي — اسمعني جيدا — أنا واقفة الآن فى باب حياة جديدة لا أعرف عنها شيئا . انا مثل عمياء تتلتمس بيدها الجدران مخافة السقوط ، انا جارية أنزلني مال والدى الى ساحة النخاسين فابتاعنى رجل من بين الرجال ، أنا لا أحب هذا الرجل لانني أجهله وأنت تعلم أن المحبة والجهالة لاتلتقيان ولكننى سوف أتعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيدا سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوى ، أما أنت فلم تزل فى ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقا وسيعة مفروشة بالازهار والرياحين ، سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملا قلبك مشعلا متقدا ، سوف تفتكر بحرية وبحرية تتكلم وتفعل ، سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لانك رجل ، سوف تعيش سيدا لان فاقة والدك لاتجعلك عبدا ، وأمواله لاتنزل بك الى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشترى ، سوف تقترن بالصبية التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك وتشاركها بافكارك قبل ان تساهمها الايام والليالى ».

وسكتت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها ثم زادت بصوت تتابعه الغصات » ولكن أمهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك الى أمجاد الرجل وتسير بى إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا ينقضى الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة أهكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الاقدام كاس الخمر ؟ أباطلا أوقفتنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلا ضمنا الروح فى ظلال هذه الياسمينة ؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت أجنحتنا وهبطت بنا الى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائما فاستيقظ غاضبا ليعاقبنا أم هيجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحا شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار الى اعماق الوادى ؟ لم نخالف وصية ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة — لم نتآمر ولم نتمرد فلماذا نهبط الى الجحيم . . لالا وألف لا ولا . ان الدقائق التى جمعتنا هى أعظم من الاجيال ، والشعاع الذى أنار نفسينا هو اقوى من الظلام ، فان فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالامواج تجمعنا على ذلك الشاطىء الهادىء وان قتلتنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا . . .

ان قلب المرأة لايتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لايموت ، قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ، ويظل فيها الربيع ربيعا والخريف خريفا الى نهاية الدهور . . . والان قد قضي الامر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفترق وأى متي نلتقى ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به المساء وأبعده الصباح ؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلما أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أنحسب هذا الاسبوع ساعة سكر مابثت أن قضت بالصحو والانتباه ؟ .... ارفع رأسك لارى عينيك ياحبيبي. افتح شفتيك لاسمع صوتك تكلم اخبرني حدثني هل تذكرني بعد أن تغرق العاصفة سفينتي أيامنا ؟ هل تسمع حفيف ، أجنحتي في سكينة الليل ، هل تشعر بانفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات ؟ وهل ترى خيالي قادما مع

خيالات الظلام مضمحلا مع ضباب الصباح ؟ قل لى ياحبيبى — قل لى ماذا تكون لى بعد ان كنت نوراً لعينى ونغمة لاذنى وجناحا لروحي ، ماذا تكون ؟ »

فاجبتها وحبات قلبي تذوب فى عيني « سأكون لك ياسلمي مثلما تريديننى أن أكون »

فقالت « أريدك أن تحبني ، أريدك أن تحبني إلى نهاية أيامى . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة ، أريدك أن تذكرنى مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادىء رأى فيه خيال وجهه قبل أن يشرب من مائه ، وأريدك أن تذكرنى مثلما تذكر الام جنينا مات فى أحشائها قبل أن يرى النور . وأريدك أن تفتكر بى مثلما يفكر الملك الرؤوف بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه ، أريدك أن تكون لى أخاً وصديقاً ورفيقاً وأريدك أن تزور والدى فى وحدته وتعزيه فى انفراده لاننى عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه »

فأجبتها « سأفعل كل ذلك ياسلمى ، سوف اجعل روحى غلافاً لروحك وقلبي بيتاً لجمالك وصدرى قبراً

لاحزانك ، سوف احبك يا سلمي محبة الحقول للربيع وسوف أحي بك حياة الازاهر بحرارة الشمس ، سوف أترنم باسمك مثلما يترنم الوادى بصدى رنين الاجراس المتمايلة فوق كنائس القرى ، سوف أصغى لاحاديث نفسك مثلما تصغى الشواطيء لحكاية الامواج ، سأذكرك ياسلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية ، والملك المخلوع أيام عزه ومجده والاسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة ، سوف افتكر بك مثلما يفكر الزارع باغمار السنابل وغلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة »

كنت أتكلم وسلمى تنظر الى اعماق الليل وتتأوه بين الآونة والاخرى ونبضات قلبها تتسارع وتتهامل كأنها أمواج بحر بين صعود وهبوط ، ثم قالت « غداً تصير الحقيقة خيالا واليقظة حلماً فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوى الظمآن من جداول الاحلام ؟ »

فأجبتها قائلا « غداً يسير بك القدر الى أحضان العائلة المملوءة بالراحة والهدوء . ويسير بي الى ساحة العالم

حيث الجهاد والقتال . أنت الى منزل رجل يسعد بجمالك وطهر نفسك . وأنا الى مكامن أيام تعذبنى بأحزانها وتخيفني بأشباحها . أنت الى الحياة وأنا الى النزاع . أنت الى الانس والالفة وأنا الى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادى ظل الموت تمثالا للحب وأعبده . سأتخذ الحب سميرا واسمعه منشداً وأشربه خمراً والبسه ثوباً . عند الفجر سينبهني الحب من رقادى ويسير أمامى الى البرية البعيدة . وعند الظهيرة سيقودنى الى ظل الاشجار فاربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس . وفى المساء سيوقفنى أمام المغرب ويسمعنى نغمة وداع الطبيعة للنور ويرينى أشباح السكينة سابحة فى الفضاء . وفى الليل سيعانقنى فانام حالماً بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء . في الربيع سأمشى والحب جنباً لجنب مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار أقدام الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار بكؤوس النرجس والزنبق . وفى الصيف سأتكىء والحب ساندين رأسينا الى اغمار القش مفترشين الاعشاب متلحفين السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفى الخريف

سأذهب والحب الى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين الى الاشجار وهى تخلع أثوابها المذهبة متأملين باسراب الطيور الراحلة الى الساحل . وفى الشتاء سأجلس والحب بقرب المواقد تالين حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب وفى أيام الشبيبة سيكون لى الحب مهذباً وفى الكهولة عضداً وفى الشيخوخة مؤنساً ، سيظل الحب معى ياسلمى الى نهاية العمر الى ان يجيء الموت ، الى ان تجمعني بك قبضة الله » .

كانت الالفاظ تتصاعد مسرعةً من أعماق نفسى كأنها شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل فى زوايا تلك الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن أجفانها شفاه تجيبنى بالدموع على الكلام

إن الذين لم يهبهم الحب أجنحة لايستطيعون ان يطيروا إلى ماوراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحرى الذى طافت فيه روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة

وأفراحها المفرحة بأوجاعها . إن الذين لم يتخذهم الحب أتباعا لا يسمعون الحب متكلما . فهذه الحكاية لم تكتب لهم ، فهم وإن فهموا معانى هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما يسيل بين سطورها من الاشباح والخيالات التى لا تلبس الحبر ثوباً ولا تتخذ الورق مسكنا . ولكن أى بشري لم يرشف من خمرة الحب فى احدى كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهيبة فى ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالاسرار والاحلام والعواطف ؟ أى زهرة لم يسكب الصباح قطرة من الندى بين أوراقها ، وأى ساقية تضل طريقها ولا تذهب الى البحر ؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها الى الامام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها وظهر على وجهها المصفر كل ما فى نفس المرأة المظلومة من الشكوى والقنوط والألم ، ثم صرخت قائلة : « ماذا فعلت المرأة يارب فاستحقت غضبك . ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك الى آخر الدهور . هل اقترفت جرما

لانهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية . أنت قوى يارب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالاوجاع . أنت عظيم وهي تدب حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك . أنت عاصفة شديدة وهى كالغبار أمام وجهك فلماذا تذريها على الثلوج . أنت جبار وهى بائسة فلماذا تحاربها . أنت بصير عليم وهى تائهة عمياء فلماذا تهلكها . أنت توجدها بالمحبة فكيف بالمحبة تفنيها . بيمينك ترفعها إليك وبشمالك تدفعها الى الهاوية وهى جاهلة لاتدرى أنى ترفعها وكيف تدفعها . فى فمها تنفخ نسمة الحياة وفى قلبها تزرع بزور الموت . على سبل السعادة تسيرها راجلة ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في حنجرتها تبث نغمة الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة . بأصابعك الخفية تمنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات الاوجاع حول ملذاتها ، فى مضجعها تخفى الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب ، بارادتك تحيي أميالها ومن أميالها تتولد عيوبها وذلاتها ، بمشيئتك تريها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة ، بشريعتك تزوج

روحها من جسد جميل وبقضائك تجمل جسدها بعلا للضعف والهوان . . أنت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس الحياة ، أنت تطهرها بدموعها وبدموعها تذيبها ، أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل من حبات صدرها .... أنت أنت يارب قد فتحت عينيّ بالمحبة وبالمحبة أعميتني أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني . أنت زرعت فى قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبتّ الاشواك والحسك . أنت أوثقت حاضري بروح فتيّ أحبه وبجسد رجل لا أعرفه قيدت أيامى ؛ فساعدنى لا كون قوية فى هذا الصراع المميت ، واسعفنى لابقى أمينة وطاهرة حتى الموت . . . لتكن مشيئتك يارب . ليكن اسمك مباركا الى النهاية »

وسكتت سلمى وظلت ملامحها تتكلم ، ثم أحنت رأسها وارخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها فبانت لناظرى كغصن قصفته العاصفة والقته إلى الحضيض ليجف ويندثر تحت اقدام الدهر . فأخذت يدها المثلجة بيدى الملتهبة وقبلت اصابعها بأجفانى

وشقيّ ، ولما حاولت تعزيتها بالكلام وجدتني أحرى منها بالتعزية والشفقة فبقيت صامتاً حائراً متأملا شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي مصغياً لأنة قلبي في داخلي خائفاً من نفسي على نفسي

ولم ينبس أحدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة لأن اللوعة إذا عظمت تصير خرساء فبقينا ساكتين جامدين كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب ، ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلما لان خيوط قلبينا قد وهت حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه ، وظهر لبنان كشيخ لوت ظهره الاعوام وأناخت هيكله الاحزان وهجر أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره ان الجبال والأشجار والأنهار تتبدد هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات والأزمنة مثلما تتغير ملامح

وجه الانسان بتغيير أفكاره وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء ، والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى ويلتحف الفضاء ، والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى ، ولبنان الذي ظهر منذ أسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عند ما كان القمر بدراً والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً منهوكا مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر

وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحبّ واليأس شبحين هائلين هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على عنقينا ، هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً ، ولما أخذت يد سلمى ووضعتها على شفتيّ متبركا دنت مني

ولثمت مفرق شعرى ثم عادت وارتمت على المقعد الخشبي وأطبقت جفنيها وهمست ببطء « اشفق يارب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة »

انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعرا بنقاب كثيف يوشي مداركى الحسية مثلما يغمر الضباب وجه البحيرة ، وسرت وخيالات الاشجار القائمة على جانبي الطريق تحترك أمامى كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الارض لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كانها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة في الفضاء نحو صدرى ، والسكينة العميقة تخيم على كانها أكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدى ، كل ما فى الوجود وكل معنى فى الحياة وكل سر فى النفس قد صار قبيحاً رهيباً هائلا ، فالنور المعنوى الذى أرانى جمال العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدى بلهيبها وتستر نفسى بدخانها . والنغمة التى كانت تضم اليها أصوات المخلوقات وتجعلها نشيدا علويا قد استحالت فى تلك الساعة الى ضجيج أروع من زمجرة الأسد وأعمق من صراخ

الهاوية

بلغت غرفتي وارتميت على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط بين السياج والسهم في قلبه ، وظلت عاقلتي تتراوح بين يقظة مخيفة ونوم مزعج وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات سلمى « اشفق يارب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة »





أمام عرش الموت

انما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون فى أكثر المواطن والاباء يخسرون دائما ، أما الصبايا المنتقلات كالسلع من منزل الى آخر فتزول بهجتهن ونظير الامتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء

أن المدنية الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلا ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل ، كانت المرأة بالامس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة ، كانت بالامس عمياء تسير فى نور النهار فأصبحت مبصرة تسير فى ظلمة الليل كانت جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها ، فهل يجيء يوم يجتمع فى المرأة الجمال بالمعرفة والتفنن بالفضيلة وضعف الجسد بقوة النفس ؟ انا من القائلين أن

الارتقاء الروحى سنة في البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة ، فاذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لاتخلو من مكامن اللصوص وكهوف الذئاب . فى هذا الجبل الشبيه بالغيبوبة التي تتقدم اليقظة — فى هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية — فى هذا الجبل الغريب بأمياله وأمانيه لاتخلو مدينةمن امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل ، وسلمى كرامه كانت فى بيروت رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد سارت قهراً فى موكب الحياة نحو الشقاء

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنا معاً فى منزل فخم قائم على شاطىء البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاغنياء ، وبقى فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعى بين أغنامه . ومضت أيام العرس وانقضت ليالى الافراح

ومر الشهر الذي يدعوه الناس عسلا تاركا وراءه شهور الخل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جماجم القتلى في البرية البعيدة . أن بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ماوراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرحى الى أعماق اليم ، بل هي مثل آثار الاقدام على رمال الشاطىء لاتلبث ان تمحوها الامواج

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو روح أمه الساكنة في الابدية ، فالصبابة التي كانت تمتلك كليتي قد تحولت الى كآبة عمياء لاترى غير نفسها . والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولهاً يستقطر الدم من قلبي وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسلمى والغبطة لبعلها والطمأنينة لوالدها ولكن باطلا كنت أشفق وابتهل واصلي لان تعاسة سلمى كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت ، أما

يعلها فكان من أولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم وهكذا يظلون معذبين بمطامعهم إلى نهاية أيامهم ، وباطلا كنت أرجو الطمأنينة لفارس كرامه لان صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلا إلى ما بقى من ثروته

كان منصور بك شبيها بعمه المطران بولس غالب وكانت أخلاقه كاخلاقه ونفسه صورة مصغرة لنفسه ولم يكن الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط ، كان المطران يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتمياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة فى الصباح ويصرف ما بقى من النهار منتزعاً الاموال من الأرامل واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضى النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته فى تلك الازقة المظلمة حيث يختمر الهواء بانفاس

الفساد ، كان المطران يقف يوم الاحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لايتعظ به ويصرف أيام الاسبوع مشتغلا بسياسة البلاد . أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدى الوجاهة . كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان محتالا يمشي بشجاعة في نور النهار

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الامم الشرقية الى ذوى النفوس المعوجة والاخلاق الفاسدة فتتراجع الى الوراء ثم تهبط الى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار . .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وانا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حتى صفعه باحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع أجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي

على ذكرى أيام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ولكن أليست المرأة الضعيفة هى رمز الامة المظلومة ؟ أليست المرأة المتوجعة بين أميال نفسها وقيود جسدها هى كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ، أو ليست العواطف الخفية التى تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هى كالعواصف الشديدة التى تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الامة بمنزلة الشعاع من السراج وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً اذا لم يكن زيته شحيحاً ؟

∴

مضت أيام الخريف وعرت الرياح الاشجار متلاعبة باوراقها الصفراء مثلما تداعب الانواء زبد البحر ، وجاء الشتاء باكياً منتحباً وانا فى بيروت ولا رفيق لى سوى أحلام تتصاعد بنفسى تارة فتبلغها الكواكب وتنخفض بقلبي طوراً فتلحده بجوف الارض

إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتهجر الناس مثلما يبتعد الغزل الجريح عن سربه ويتوارى فى كهفه حتى يبرأ أو يموت

ففي ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه تركت وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون المتلامعة أوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، اصفر اللون ، وقد غرقت عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيهما أشباح السقم والألم ، فالملامح التي كانت بالامس عنوان البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت وأصبحت كصحيفة رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً غريبة ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللطف واللدانة قد نحلتا حتى بدت عظام أصابعهما من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام العاصفة

ولما دنوت منه سائلا عن حاله حول وجهه المهزول نحوى وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال

« اذهب — إذهب ياإبني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمى وسكن روعها ثم عد بها اليّ لتجلس بجانب فراشي . »

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمى منطرحة على مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند وأمسكت أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها ، فاقتربت منها ببطء ولفظت اسمها بصوت أقرب الى التنهد منه الى الهمس فاحتركت مضطربة كنائم تراوده الاحلام المخيفة ثم استوت على مقعدها ونظرت اليّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى شبحاً فى عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودى فى ذلك المكان

وبعد سكوت عميق ارجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التى سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها باطراف بنانها وقالت متحسرة « أرأيت كيف تبدلت الايام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ فى هذا المكان جمعنا الربيع فى قبضة الحب وفى هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء أمام عرش الموت فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل »

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات أواخرها ، ثم عادت وسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ أن تراها فوضعت يدي على شعرها قائلا « تعالى ياسلمى — تعالى ننتصب كالابراج أمام الزوبعة . هلمى نقف كالجنود أمام الاعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء ، وان تغلبنا نعيش كالابطال . . ان عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمأنينة . فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي اسمى من الخلد الذى يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحتمل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الارض ولن تفرح بجمال نيسان . . هلمى نسير ياسلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة رافعين أعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعى المنسابة بين الاشواك ، فان أوقفنا الخوف في منتصف الطريق أسمعتنا أشباحُ الليل صراخ الاستهزاء

والسخرية ، وان بلغنا قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا أرواح الفضاء بانشودة النصر والاستظهار . خفقي عنك ياسلمى وجففي دموعك واخفي هذه الكآبة الظاهرة على محياك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لان حياته من حياتك وشفاءه بابتسامك

فنظرت الي نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثم قالت « أنطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس والقنوط . أيعطي الفقير الجائع خبزه الى الجائع الفقير . أو يصف العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء ؟ »

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس الى غرفة والدها

جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام وهدوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة « وكل منهما شاعر بلوعة الآخر عالم بضعفه سامع غصات قلبه ، فكانا مثل قوتين متضارعتين تفنيان بعضهما بعضاً في السكينة ، والد دنف يذوب ضنى لتعاسة ابنته وابنة محبة

تذبل متوجعة بعلة والدها . نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت وانا بينهما اتحمل مابى وأقاسى مابهما . ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم . شيخ يمثل بيتاً قديماً هدمه الطوفان وصبية تحاكى زنبقة قطع عنقها حد المنجل ، وفتى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل العوبة بين أصابع الدهر

وتحرك الشيخ اذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو سلمى وبصوت أودعه كل مافى قلب الاب من الرقة والرأفة وكل مافى صدر العليل من السقم والألم قال « ضعى يدك فى يدى ياسلمى »

فمدت يدها والقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد قائلا « لقد شبعت من السنين ياولدى . قد عشت طويلا وتلذذت بكل ماتثمره الفصول وتمتعت بكل ماتبرزه الايام والليالى . قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى وجمعت المال كهلا وكنت فى جميع هذه الادوار سعيداً مغبوطاً . . . فقدت أمك ياسلمى قبل ان تبلغى

الثالثة ولـكنها أبقتك لى كنزاً ثميناً فـكنت تنمين بسرعة نمو الهلال ، وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم في جوض ماء هادىء ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك وأقوالك ظهور الحلي الذهبية من وراء النقاب الرقيق ، فتعزيت بك ياولدى لانك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة الموت الناعمة ، فتعزى ياولدى لاني بقيت لاراك امرأة كاملة وافرحى لانني سأبقى بك حياً بعد موتى . ان ذهابى الآن هو مثل ذهابى غداً أو بعده ، لان أيامنا مثل أوراق الخريف تتساقط وتتبدد أمام وجه الشمس ، فان أسرعت بى الساعات الى الابدية فلأنها علمت بان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك . »

لفظ الكلمات الاخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذى ينبثق من أجفان الاطفال . ثم مد يده بين المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة

يمنطقها اطار من الذهب قد نعمت حدوده ملامس الايدى ومحت نقوشه قبل الشفاه ، ثم قال بدون أن يحول عينيه عن الرسم « اقتربى ياسلمى اقتربى منى ياولدى لأريك خيال أمك تعالى وانظرى ظلها على صفحة من الورق »

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد أن أحدقت به طويلا كانه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قربته من شفتيها وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة « ياأماه . ياأماه ياأماه » ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت ووضعت الرسم على شفتيها المرتعشتين كانها تريد أن تبث فيه الحياة بانفاسها الحارة

ان اعذب ماتحدثه الشفاه البشرية هو لفظة (الام) وأجمل مناداة هى (ياأمي) كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالامل والحب والانعطاف وكل مافى القلب البشرى من الرقة والحلاوة والعذوبة . الام هى كل شيء فى هذه الحياة — هي التعزية فى الحزن والرجاء فى اليأس والقوة فى

الضعف — هى ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذى يفقد أمه يفقد صدراً يسند اليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه . .

كل شيء فى الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة فالشمس هى أم هـذه الارض ترضعها حرارتها وتحضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء الا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر وترنيمة العصافير والسواقى ، وهذه الارض هى أم للاشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تفطمها . والاشجار والازهار تصير بدورها أمهات حنونات للاثمار الشهية والبزور الحية . وأم كل شيء فى الكيان هى الروح الكلية الازلية الابدية المملوءة بالجمال والمحبة

وسلمى كرامه لم تكن تعرف أمها لانها ماتت وهي طفلة وقد شهقت متأثرة عندما رأت رسمها وناد تها « ياأماه » أسرت ارادتها لان لفظة الام تختبيء فى قلوبنا مثلما تختبيء النواة فى قلب الارض وتنبثق من بين شفاهنا فى ساعات الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافى والممطر

كانت سلمى تحدق بوسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزه الى صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من قواها حتى اذا ماوهت الحياة فى جسدها النحيل هوت وسقطت بجانب سرير أبيها، فوضع كلتا يديه على رأسها قائلاً « قد أريتك ياولدى شبح أمك على صفحة من الورق فاصغى الىّ لاسمعك أقوالها»

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ فى العش عند ما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى أعين محدقة وآذان واعية

فقال والدها « كنت طفلة رضيعة عند ما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بكاء حكيم متجلد ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبى فى هذه الغرفة وأخذت يدى براحتيها وقالت (قد مات والدى يافارس وأنت باق لى وهذه هى تعزيتى . ان القلب بعواطفه المتشعبة يماثل الارزة باغصانها المتفرقة فاذا ما فقدت شجرة الارز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت

بل تحول قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملأ بفروعه الفضة مكان الغصن المقطوع) . هذا ما قالته والدتك ياسلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك أن تقوليه عند ما يأخذ الموت جسدى الى راحة القبر وروحى الى ظل الله »

فأجابت سلمى متفجعة « فقدت أمى والدها فبقيت أنت لها فمن يبق لى اذا فقدتك ياوالدى ؟ مات والدها وهى في ظلال زوج محب فاضل أمين — مات والدها فبقى لها طفلة تغمر رأسها الصغير بثدييها وتطوق عنقها بذراعيها فمن يبق لى اذا فقدتك يا والدى ؟ انت أبى وأمى ورفيق حداثتى ومهذب شبيبتى فبمن استعيض اذا ماذهبت عني ؟ »

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحوى وامسكت بيمينها طرف ثوبى ثم قالت « ليس لى غير هذا الصديق ياوالدى ولن يبق لى سواه اذا ما تركتنى . فهل أتعزى به وهو متعذب مثلى ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟ ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها

كما ان الحمامة لا تطير باجنحة مكسورة . . . هو رفيق لنفسي ولكنني قد اثقلت عاتقه باشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الاخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة والقلب احتراقاً »

كنت أسمع سلمى متكلمة وعواطفي تسمو وصدري يضيق حتى شعرت بان اضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات . أما الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد والمساند ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح . ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء « دعيني اذهب بسلام ياولدي . لقد لمحت عيناي ما وراء الغيوم فان احولهما نحو هذه الكهوف . . دعيني أطير فقد كسرت باجنحتي قضبان هذا القفص . قد نادتني أمك ياسلمى فلا توقفيني . . ها قد طاب الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة شراعها وتأهبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . . دعي جسدي يرقد مع الذين

رقدوا ودعي روحي تستيقظ لان الفجر قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك . . قبليني قبلة رجاء وامل .. ولا تسكبي قطرة من مرارة الحزن على جسدي لئلا تمتنع الأعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . . ولا تذرفي دموع اليأس على يدي لانها تنبت شوكا على قبري . ولا ترسمي زفرات الاسى سطراً على جبهتي لان نسيم السحر يمرّ ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء ... قد احببتك بالحياة ياولدي وسوف احبك بالموت فتظل روحي قريبة منكِ لتحميكِ وترعاكِ »

والتفت الشيخ اليّ وقد انطبقت اجفانه قليلا فلم أعد أرى سوى خطين رماديين مكان عينيه ثم قال وسكينة الفناء تسترق الفاظه « أما أنت يا ابني فكن أخا لسلمى مثلما كان والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة وكن صديقاً لها حتى النهاية : ولا تدعها تحزن لان الحزن على الاموات غلطة من اغلاط الاجيال الغابرة ، بل أتلُ على مسمعيها أحاديث الفرح وانشدها أغاني

الحياة فتسلو وتتناسى . . . قل لابيك أن يذكرنى . . . سله فيخبرك عن مآتى أيامى عند ما كان الشباب يحلق بنا الغيوم . . قل له اننى احببته بشخص ابنه فى آخر ساعة من حياتى . . »

وسكت دقيقة وظلت أشباح الفاظه تدب على جدران الغرفة ثم عاد فنظر الىّ والى سلمى بوقت واحد وقال همساً « لاتدعوا طبيبا ليطيل بعساحيقه ساعات سجني لان أيام العبودية قد مضت فطلبت روحى حرية الفضاء . . . ولا تدعوا كاهناً الى جانب فراشي لان « تعازيمه » لاتكفر عن ذنوبى ان كنت خاطئا ولا تسرع بى الى الجنة ان كنت باراً . . ان ارادة البشر لاتغير مشيئة الله كما ان المنجمين لايحولون مسير النجوم . . . أما بعد موتى فليفعل الاطباء والكهان ماشاءوا فاللجة تنادى اللجة أما السفينة فتظل سائرة حتى تبلغ الساحل . . »

. : .

عند ماانتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه.

عينيه الغارقتين فى ظلمة النزاع — فتحهما لآخر مرة — وحولهما نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع لان الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الالفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفتيه « ها قد ذهب الليل .. وجاء الصباح ... ياسلمى .. يا ... ياسلمى .. »

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفتاه واسلم الروح

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة كالثلج فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعاً بنقاب الموت فجمدت الحياة فى جسدها وجفت الدموع فى محاجرها فلم تحترك ولم تصرخ ولم تتأوه بل بقيت محدقة به بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت اعضاؤها مثلما تتراخى طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها الارض ثم قالت بهدوء « اشفق يارب وشدد جميع الاجنحة المكسورة »

...

مات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع التراب جسده واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها المخاوف أمام عينيها

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامى وهواجسى ، تتناوبنى الايام والليالى مثلما تنتاب النسور والعقبان لحمان الفريسة . فكم حاولت ان افقد ذاتى بين صفحات الكتب لعلنى استأنس بخيالات الذين طواهم الدهر ، وكم جربت ان أنسى حاضرى لاعود بقراءة الاسفار الى مسارح الاجيال الغابرة فلم يجدنى كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول إخماد النار بالزيت ، لاننى لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى أشباحها السوداء ولا أسمع من أنغام الامم غير الندب والنواح ، فسفر أيوب كان عندى أجمل من مزامير داود ومراثى ارميا كانت أحب لدى من نشيد سليمان ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسى من عظمة العباسيين وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيامى ورواية هملت أقرب الى قلبى من كل

مما كتبه الافرنج

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير اشباحنا الرهيبة وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة



٩

بين عشتروت والمسيح

بين تلك البساتين والتلول التى تصل أطراف بيروت باذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور فى قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف، ومع أن هذا المعبد لايبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قل من عرفه من محبى الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة فى سوريا مختبىء وراء ستاير الاهمال، فكأن الاهمال قد ابقاه محجوباً عن عيون الاثريين ليجعله خلوة لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقى منه صورة فينيقية الشواهد والبينات محفورة فى الصخر قد محت أصابع الداهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها . وهى تمثل عشتروت ربة الحب والجمال

جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعالا والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد والسادسة اكليلا من الغار والسابعة قوساً وسهاماً وجميعهن ناظرات الى عشتروت وعلى وجوههن سيماء الخضوع والامتثال

وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً واكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان . وهذه الصورة البيزنطية الاسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس أو السادس للمسيح (١)

وفي الجدار الغربي كوتان مستديرتان يدخل منهما

(١) من المعلوم عند الاثريين ان اكثر الكنائس المسيحية في الشرق كانت هياكل ومعابد لآلهة الفينيقيين واليونان الاقدمين . ومما يستدعي التأمل وينبه الخيال انقلاب الهيكل كنيسة ثم سيرورته جامعاً . ففي دمشق وانطاكية والاستانة ابنية عديدة رددت زواياها ترانيم الوثنيين ثم طابت سقوفها ببخور المسيحيين ثم تبطنت جدرانها بصلوات المسلمين

شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما طليتا بماء الذهب

وفى وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد احتجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الاقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هـذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت

ولم يكن فى هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتى الاجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين . وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل مالا تقع عليه حواسه فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والانغام والصور والتماثيل التى تظهر باشكالها أقدس أمياله فى الحياة وأجمل مشتهياته بعد الموت

في هذا الهيكل المجهول كنت التقي بسلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين الى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الاجيال المصلوب فوق الجلجلة ، مستحضرين الى مخيلتينا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور أمام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق منهم سوى اسم تردده الايام أيام وجه الابدية

كم يصعب عليّ الآن أن ادوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى — تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والالم والفرح والحزن والامل واليأس وكل مايجعل الانسان انسانا والحياة لغزاً أبدياً . ولكن كم يصعب علي أن أذكرها ولارسم بالكلام الضئيل خيالا من خيالاتها لتبقى مثلا لابناء الحب والكآبة

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا الى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصيين مآتي حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نتدرج الى اظهار مافي

أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه ومايقاسيه من الجزع والحسرة، ثم يصير واحدنا الآخر باسطاً أمامه كل مافى جيوب الامل من الاوهام المفرحة والاحلام المذبة فيهدأ روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ثم نبتسم متناسيين كل شيء سوى الحب وافراحه منصرفين عن كل أمر الا النفس وأميالها. ثم نتعانق فنذوب شغفاً وهياماً. ثم نقبل سلمى مفرق شعرى بطهر وانعطاف فتملأ قلبى شعاعاً واقبل اطراف أصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوى عنقها العاجى وتتورد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الاشعة الاولى التى يلقيها الفجر على جباه الروابى. ثم نسكت وننظر طويلا نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بانوار المغرب البرتقالية

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الآراء والافكار فى شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث فى مرامى الكتب التى كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوى عليه من الصور

الخيالية والمبادىء الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة فى الجامعة البشرية وعن تأثير الاجيال الغابرة على أخلاقها وأميالها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الامراض والمفاسد . وانى أذكر قولها مرة « ان الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبآت صدرها لانهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام »

وقولها لى مرة أخرى وقد أشارت بيدها الى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل « فى قلب هذه الصخرة قد نقشت الاجيال رمزين يظهران خلاصة أميال المرأة ويستجليان غوامض نفسها المتراوحة بين الحب والحزن — بين الانعطاف والتضحية — بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة أمام الصليب . . . أن الرجل يشترى المجد والعظمة والشهرة ولكن هى المرأة التى تدفع الثمن »

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى المكان المدعو بحديقة الباشا ثم تسير الهوينا على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة على مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع والعطش

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لان النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشرى وتقف برأس مرفوع أمام عروش الآلهة

إن الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معانى النواميس العلوية الاولية الخالدة قد تعودت بصيرة الانسان النظر إلى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع أن تحدق بنور الشمس . لقد توارثت الاجيال الامراض والعاهات النفسية

بعضها عن بعض حتى أصبحت عمومية بل صارت من الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم فاذا ما ظهر بينهم فرد خالٍ منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات الروحية

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها لانها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الاصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين . بل هم كالحشرات التى تدب فى الظلمة وتخشى الخروج الى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين

ان السجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق فهل تلام لانها كانت تنظر من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع ؟ هل يحسبها الناس خائنة لانها كانت تجيء من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت

المقدسة والجبار المصلوب ؟ ليقل الناس ما شاءوا فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذى لا يبلغه عوى الذئاب وفحيح الافاعى . وليقل الناس ماأرادوا عنى فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص ، والجندى الذى رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقى الدماء تجرى تحت قدميه لايحفل بالحجارة التى يرشقه بها صبيان الازقة .



١٠

التضحية

فى يوم من أواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر فى السواحل وطلب الناس أعالي الجبال سرت كعادتى نحو ذلك المعبد واعداً نفسي بلقاء سلمى حاملا بيدى كتاباً صغيراً من الموشحات الاندلسية التى كانت فى ذلك العهد ولم تزل الى الآن تستميل روحى

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست أرقب الطريق المنسابة بين أشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر الى وجه كتابى هامساً في مسامع الاثير أبيات تلك الموشحات التي تستهوى القلب برشاقة تراكيبها ورنة أوزانها وتعيد الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبة واشبيلية تاركين فى قصورها ومعاهدها وحدائقها كل مافي أرواحهم من الآمال والاميال

ثم تواروا وراء حجب الدهور والدمع فى أجفانهم والحسرة فى أكبادهم

وبعد ساعة التفت فاذا بسلمى تميس بقدها النحيل بين الاشجار المحتبكة وتقترب نحوى مستندة على مظلتها كأنها تحمل كل مافى العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربى نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيهما معانى وأسراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وتثير حب الاستطلاع والاستقصاء

وشعرت سلمى بما يجول فى خاطرى فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنونى وهواجسى فوضعت يدها على شعرى وقالت « اقترب مني ، اقترب منى يا حبيبي ، اقترب ودعني ازود نفسى منك فقد دنت الساعة التى تفرقنا إلى الأبد »

فصرخت قائلاً « ماذا تعنين ياسلمى وأية قوة تستطيع ان تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت ان القوة العمياء التى فرقتنا بالأمس ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التى تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها

قد بانت بأيدى عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني و بينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت عليّ أن لاأخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم »

فسألتها قائلا « هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟ »

فأجابت « إن زوجي لايحفل بي ولا يدرى كيف أصرف أيامي فهو مشغول عني بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة الى أسواق النخاسين فيتعطرن ويتكحلن ليبعن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع »

فقلت « إذاً ماذا يصدك عن المجيء الى هذا المعبد والجلوس بجانبي أمام هيبة الله وأشباح الاجيال ؟ هل مللت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع و التفريق ؟ »

فأجابت والدمع يراود أجفانها « لا ياحبيبي . ان روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها ولا ملت عيني النظر اليك لأنك نورها . ولكن اذا كان القضاء قد حكم على أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود والسلاسل

فهل أرضى بأن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟»

فقلت « تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات »

فأجابت « لا أقدر أن أقول كل شيء لان اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أني أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني »

فقلت « ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ منهم ؟ »

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة « ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأنني أخرج مرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه »

فقلت « وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟ »

فأجابت « لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك، ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره وقد بث عليّ العيون لترقبني وأوعز إلى خدمه ليتجسسوا

حركاتى حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذى أسكنه والطرقات التي أسير عليها نواظرَ تحدق بى وأصابع تشير إلىّ وآذان تسمع همس أفكارى »

وأطرقت هنيهة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها « أنا لا أخاف على نفسى من المطران لأن الغريق لا يخشى البلل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حرّ كنور الشمس أن تقع مثلى فى أشراكه فيقبض عليك بأظافره وينهشك بأنيابه .. أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدرى ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الافعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراحه وأمجاده »

فقلت « ان من لا تلسعه أفاعى الايام وتنهشه ذئاب الليالى يظل مغروراً بالأيام والليالى . ولكن اسمعى ياسلمى ، اسمعينى جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لنتقى صغارة الناس وشرورهم ؟ هل سُدت أمامنا سُبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت ؟ »

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة « لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق »

فأخذت يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد الدخان عن شعلة فتوتي فقلت متهيجاً (لقد استسلمنا طويلا إلى أهواء الناس ياسلمى . . منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد الى العميان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتك ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء فهل نبقى خاضعين لديه محدقين بظلمة نفسه حتى يلوكنا القبر وتبتلعنا الأرض؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت؟ وأعطانا الحرية لنجعلها ظلا للاستعباد؟ ان من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي أوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد أحببتك ياسلمى وأحببتني والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة . فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها؟ أمامنا العالم مسرحاً وسيعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب

فلماذا نسكن فى هـذا النفق الضيق الذى حفره المطران وأعوانه ؟ أمامنا الحياة وما في الحياة من الحرية وما فى الحرية من الغبطة والسعادة فلماذا لانخلع النير الثقيل عن عاتقينـا ونكسر القيود الموثوقة بأرجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومى ياسلمى نذهب من هذا المعبد الصغير إلى هيكل الله الأعظم . هلمى نرحل من هذه البلاد ومافيها من العبودية والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تطالها أيدى اللصوص ولا تبلغها لهات الأبالسة . تعالى نسرع إلى الشاطىء مستترين بوشاح الليل فنعتلى سفينة تقلنا إلى ماوراء البحار وهناك نحيى حياة جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ولا تدوسنا الضوارى بأقدامها . لا ترددى ياسلمى فهذه الدقائق أثمن من تيجان الملوك وأسمى من سرائر الملائكة . قومى نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة إلى حقول تنبت الأزاهر والرياحين »

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشىء غير منظور فى فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن مافى داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء

« لا لا ياحبيبي ، ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الاسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة فأنا لا أستحقها ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها ، لان الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلا بين الصخور ولكنه لايستطيع أن يسبح محلقاً في الفضاء ، والعيون الرمداء تحدق بالاشياء الضئيلة ولكنها لاتقوى على النظر الى الانوار الساطعة ، فلاتحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لان ظله يخيفني كالشقاء . ولكن انظر الى لاريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صدري .. أنت تعلم بانني أحبك محبة الام وحيدها وهي المحبة التي علمتني أن أحميك حتي ومن نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفني الآن عن اتباعك إلى أقاصي الارض وتجعلني أن أميت عواطفي وأميالي لكي تحيي أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم الفاسدة . إن المحبة المحدودة

تطلب امتلاك المحبوب . أما المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . . المحبة التى تجىء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفى باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو بالقبل والعناق ، أما المحبة التى تولد فى احضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الابدية ولا تستكفى بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شىء سوى الالوهية . . . عند ماعرفت بالامس بان المطران بولس غالب يريد ان يمنعنى عن الخروج من منزل ابن أخيه ويسلبنى اللذة الوحيدة التى عرفتها منذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتى ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من البلاد الوسيعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصى ، وتخيلت نفسى عائشة بقربك . محاطة بخيالات روحك ، مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التى تنير صدور النساء المظلومات وتجعلهن أن يتمردن على التقاليد الباطلة ليعشن فى ظل الحق والحرية لم تمر فى خاطرى حتى جعلتني أن أستصغر نفسى واستضعفها وأن أرى محبتنا واهية محدودة لاتستطيع الوقوف أمام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك أضاع ملكه وغنى فقد

كنوزه ، ولكننى مالبثت ان رأيت وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محدقتين بى فتذكرت ماقلته لى مرة وهو (هلمى ياسلمى نقف أمام الاعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا فان صرعنا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالابطال ، لان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهقرها الى حيث الأمن والطمأنينة) . . هذه الكلمات قلتها لى ياحبيبي عند ما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدى ، وقد ذكرتها بالامس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسى ، فتقويت وتشجعت وشعرت وأنا فى ظلمة السجن بنوع من الحرية النفسية التى تستهون الشدائد وتستصغر الاحزان ، ورأيت حبنا عميقا كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء ، وقد جئت اليوم اليك وفى نفسى المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي المقدرة على تضحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم — تضحية سعادتى بقربك لكى

تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم . .
كنت أجيء بالامس الى هذا المكان والقيود الثقيلة
تغل قدمي الضعيفتين ، أما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم
يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق . كنت أجيء مثل
طيف طارق خائف ، أما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية
تشعر بوجوب التضحية وتعرف قيمة الاوجاع وتريد أن
تحمى من تحبه من الناس الاغبياء ومن نفسها الجائعة .
كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم
لاريك حقيقتي امام عشتروت المقدسة ويسوع المصلوب .
انا شجرة نابتة فى الظل وقد مددت أغصانى اليوم لكى
ترتعش ساعة فى نور النهار . وقد جئت لاودعك ياحبيبي
فليكن وداعنا عظيماً وهائلا مثل حبنا — ليكن وداعنا
كالنار التى تصهر الذهب لتجعله أشد لمعاناً »

ولم تترك لى سلمى مجالا للكلام والاحتجاج بل
نظرت الىّ وقد أبرقت عيناها فأحاطت أشعتهما بوجدانى
واتشحت ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت

كمليكة توحي الصمت والتخشع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ماشهدته فيها قبل تلك الساعة وطوقت عنقي بزندها الاملس وقبلت شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة ايقظت الحياة في جسدي وأثارت الاسرار الخفية في نفسي وجعلت الذات الوضعية التي أدعوها (أنا) أن تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة أمام الناموس العلوي لذي اتخذ صدر سلمى هيكلا ونفسها مذبحا

∴

ولما غربت الشمس وامحت أشعتها الاخيرة عن تلك الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل ونظرت طويلا الى جدرانه وزواياه كأنها تريد ان تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ثم تقدمت قليلا وجثت خاضعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة « ها قد اخترت صليبك يايسوع الناصري وتركت مسرات عشتروت وأفراحها ، قد كللت رأسي بالاشواك بدلا من الغار ، واغتسلت

بدمي ودموعي بدلا من العطور والطيوب ، وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوثر ، فاقبلني بين تابعيك الاقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كآبة قلوبهم »

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة « سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكض الاشباح المخيفة فلا تشفق علي ياحبيبي ولا تحزن من أجلي لان النفس التي ترى ظل الله مرة لاتخشى بعد ذلك أشباح الابالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملاءِ الاعلى لاتغمضها أوجاع هذا العالم »

وخرجت سلمى من ذلك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً الى مسارح الرؤيا حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو الارواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب والحزن والخلود

ولما صحوت من هذه السكرة وكان الليل قد غمر

الوجود بأمواجه القائمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين مسترجعاً إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى معيداً الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما ستجيء بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت للمرة الأولى بأن الانسان وإن ولد حراً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي نتوهمه سراً علوياً هو استسلام اليوم الى مآتي الأمس ، وخضوع الغد إلى اميال اليوم : وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى أن تختار الموت بدلا من الحياة . وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيهما أجل وأجمل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي أن الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة

١١

المنقذ

ومرّت خمس أعوام على زواج سلمى ولم ترزق ولداً ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلها ويقرب بابتساماته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر بين أواخر الليل وأوائل النهار

والمرأة العاقر مكروهة فى كل مكان لأن الانانية تصور لأكثر الرجال دوام الحياة فى أجساد الابناء فيطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض

إن الرجل المادى ينظر الى زوجته العاقر بالعين التى يرى بها الانتحار البطىء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها عدو غدار يريد الفتك به ، ومنصور بك غالب كان ماديًا كالتراب وقاسيًا كالفولاذ وطامعًا كالمقبرة وكانت رغبته

بابن يرث اسمه وسؤدده تكرهه بسلمى المسكينة وتحوّل محاسنها في عينيه إلى عيوب جهنمية ..

ان الشجرة التى تنبت فى الكهف لاتعطى ثمراً ، وسلمى كرامه كانت فى ظل الحياة فلم تثمر أطفالا ، ان البلبل لايحوك عشاً فى القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى كرامه كانت سجينة الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين . ان أزاهر الاودية هى أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة . وأطفال البشر ازاهر يلدها الحب والحنو ، فسلمى كرامه لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف فى ذلك المنزل الفخم القائم على شاطىء البحر فى رأس بيروت ، ولكنها كانت تصلى فى سكينة الليالى ضارعة امام السماء لتبعث اليها بطفل يجفف باصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت عن قلبها

وقد صلت سلمى متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاة وابتهالا . وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم .

فسمعت السماء نداءها وبثت فى أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة والعذوبة واعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أما وتمحو ذلها وعارها

الشجرة النابتة فى الكهف قد أزهرت لتثمر

البلبل المسجون فى القفص قد هم ليحوك عشاً من ريش جناحيه

القيثارة التى طرحت تحت الاقدام قد وضعت في مهب نسيم المشرق ليحرك بأمواجه مابقى من أوتارها

سلمى كرامه المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين بالسلاسل لتقبيل موهبة السماء

وليس بين أفراح الحياة مايضارع فرح المرأة العاقر عندما تهيئها النواميس الازلية لتصيرها أماً . كل مافى يقظة الربيع من الجمال ، وكل مافى مجىء الفجر من المسرة يجتمع بين أضلع المرأة التى أحرمها الله ثم أعطاها

لا يوجد نور أشد سطوعاً وأكثر لمعاناً من الاشعة التى يبعثها الجنين السجين فى ظلمة الاحشاء

وكان نيسان قد جاء متنقلا بين الروابى والمنحدرات عند ما تمت أيام سلمى لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها وعاهدتها فأخذت تضع حمل أزاهرها وتلف بأقمطة الحرارة أطفال الاعشاب والرياحين

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء دموعها فتراه مشعشعاً وقد طالما ظهرت الاشياء القاتمة متلمعة من خلال الدموع

فى ليلة وقد طافت اشباح الظلام بين تلك المنازل فى رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع المخاض والاوجاع فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ، ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيفاً جديداً ، وسكنت حركة عابرى الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر ولم يعد يسمع في ذلك الحى سوى صراخ هائل تتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن الحياة صراخ محبـة البقاء فى فضاء اللاشيء والعدم . . صراخ قوة

الانسان المحدودة أمام سكينة القوى غير المتناهية . صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام جبارين الموت والحياة

عند ما لاح الفجر ولدت سلمى ابنا ، ولما سمعت اهلاله فتحت عينيها المغلقتين بالالم ونظرت حواليها فرأت الاوجه متهللة فى جوانب تلك الغرفة . . ولما نظرت ثانية رأت الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعها فعادت وأغمضت عينيها وصرخت لاول مرة « ياولدى »

ولفت القابلة الطفل بالاقمطة الحريرية ووضعته حذاء أمه ، أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه صامتاً بين الدقيقة والاخرى

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاؤا بملابس النوم ليهنئوا الوالد بولده ، أما الطبيب فبقى ينظر بعينين كئيبتين نحو الوالدة وطفلها

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وريثه ويملأوا أيديهم من عطاياه ، أما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين يائستين الى سلمى وابنها

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثدييها فنتح عينيه لاول مرة ونظر فى عينيها ثم اختلج واغمضهما لآخر مرة . فدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس فى سره قائلا « هو زائر راحل ! »

مات الطفل وسكان الحي يفرحون مع الوالد فى القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلا : وسلمى المسكينة تحدق بالطبيب وتصرخ قائلة « اعطني ولدى لأضمه » ثم تحدق ثانية فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها

مات الطفل ورنة الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدى الفرحين بمجيئه

ولد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس ..

ولد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس : فأى بشرى يستطيع ان يقيس الزمن ليخبرنا ما اذا كانت الساعة التى تمر بين مجىء الفجر وطلوع الشمس هى أقصر من الدهر الذى يمر بين ظهور الامم وتواريها

ولد كالفكر ومات كالتنهدة واختفى كالظل فأذاق سلمى كرامه طعم الامومة ولكنه لم يبق ليسعدها ويزيل يد الموت عن قلبها . .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بابتداء النهار فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها ملامس النور .

كلمة لفظتها النواميس الازلية ثم ندمت عليها وأعادتها الى سكينة الابدية

لؤلؤة قذفها المد الى الشاطىء ثم جرفها الجزر الى الاعماق . .

زنبقة ما انبثقت من كمام الحياة حتى انسحقت تحت أقدام الموت .

ضيف عزيز ترقبت سلمى قدومه ولكنه ما حل حتى ارتحل وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى .

جنين ما صار طفلا حتى صار ترابا — وهذه حياة

الانسان ، بل حياة الشعوب ، بل حياة الشموس والأقمار والكواكب ...

وحولت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارح ثم صرخت قائلة « اعطني ابني لأضمه بذراعيّ ... أعطني ولدي لارضعه .. »

فنكس الطبيب رأسه وقال والغصات تخرسه « قد مات طفلك ياسيدتي فتجلدي وتصبري لكي تعيشي بعده »

فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكتت هنيهة ، ثم ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء « أعطني جثة ولدي ، قربه مني ميتاً »

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته إلى صدرها وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه « قد جئت لتأخذني ياولدي ، قد جئت لتدلني على الطريق المؤدية إلى الساحل ها أنذا ياولدي فسر أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم »

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفره هيبة الامومة وتظلله أجنحة الموت

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعويل أما منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كاس الشراب

⁂

وفى اليوم التالى كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت فى تابوت موشى بالمخمل الناصع ، أما طفلها فكانت أقمطته أكفانه وتابوته ذراعى أمه وقبره صدرها الهادىء

حملوا الجثتين فى نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه طرقات القلوب فى صدور النازعين فسار المشيعون وسرت بينهم وهم لا يعرفوننى ولا يدرون مابى

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم

ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول

ولما انزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين قائلا « هذه أول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد »

وقال اخر « كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها وقساوته »

وقال آخر « تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر إلى الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله فى يوم واحـد »

وقال آخر « غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخرى أوفر ثروة وأقوى جسما »

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً من المطران وابن اخيه يصبرونهما ويؤاسونهما بمستعذبات الكلام ، أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدى

وليس من يعزيني على مصيبتي كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إلى

عاد المشيعون وبقى حفار القبور منتصباً بجانب القبر الجديد وفي يده رفشه ومحفره ، فدنوت منه وسألته قائلا « أتذكر أين قبر فارس كرامه »

فنظر إلىّ طويلا ثم أشار نحو قبر سلمى وقال « في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش

فاجبته « وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل فما أقوى ساعديك »

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر والتجلد فارتميت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها

تمت